«طرائف الشُّعراء» لنجيب البعيني
متعة السخرية المضيئة

كتب التَّسلية الممتعة

يعيد «طرائف الشُّعراء في مجالس الأدباء»، لنجيب البعيني، الصَّادر مؤخَّراً، عن دار «المناهل» ـ بيروت، إلى الأذهان كتباً كانت تؤلَّف في القديم، وتقدَّم إلى أولي الأمر، من خلفاء وولاة وقادة، وهدفها التسلية الممتعة في زمن كان حديث السمر فيه زاد المجالس وقوتها.

يعرف التُّراث العربي الكثير من هذه الكتب التي كان يكتفي مؤلِّفها بحسن الاختيار أحياناً، أو يضيف ما يخطر له من تعليقات ترقى إلى مستوى تقديم رؤية إلى الأدب والشعر ومختلف قضاياهما، فتغدو أساس نظرية أدبية، كما في «البيان والتبيين»، أو في الافصاح والابلاغ، كما نرى في كتب الجاحظ والمبرِّد والأبشيهي والقيرواني.

وفي العصر الحديث، يطلُّ علينا نجيب البعيني بكتاب ينتمي بوطيد النسب إلى تلك الكتب، وهدفه أن يعيد البسمة والفرحة إلى كل مهموم حزين ومفكِّر قلق، فلعل ذلك يبعث فيه الأمل بيوم جميل مشرق ضاحك.

يكتفي البعيني باختيار مواقف شعريَّة طريفة، من دون أن يقدِّم أي تعليق، ويحصر اختياره في مرحلة زمنيَّة هي مرحلة ما أطلق عليه اسم عصر النهضة، مركِّزاً على الشعراء اللبنانيين.

طرائف دالَّة

قد نقول: إنَّ هذا الكتاب يقدِّم مادَّة مسلِّية، ممتعة...، تساعد القارئ على تمضية وقته والترويح عن نفسه بنوادر منتقاة: مضموناً وشكلاً. لكنَّنا نقول أيضاً:

إنَّ هذه المادَّة تقدِّم فائدة كذلك، فهي، من حيث المضمون، تندرج في سياق التوجيه الوطني والإنساني، ومن حيث الشكل «قصيرة مختصرة، لكي تدخل بسرعة إلى قلب القارئ فتنال استحسانه وإعجابه».

وقد نقول، أيضاً: إنَّ هذا النَّوع من التأليف مرغوب، ويجد سوقاً له رائجة، ولكنَّنا نرى، من ناحية أخرى، أنَّ هذا الكتاب يقدِّم هو وأمثاله، مادَّة طريفة تتضمَّن رؤية الشُّعراء إلى قضايا عالمهم، فيجد فيها المتأمِّل دلالات مضيئة كاشفة، تُلْمِح من خلال التندُّر والسخرية، إلى مواقف جدِّية من بعض القضايا الحياتية الكبرى.

وإن كان لنا أن نفيد، في هذا الإطار، من هذا الكتاب، فإنَّنا سنتوقَّف إزاء بعض الطرائف لنرصد دلالتها، محاولين تبيُّن رؤية الشاعر المبدع، مالك سلطة المعرفة، إلى قضيَّة كبرى من قضايا الاجتماع الإنساني، وهي قضية علاقة الشاعر بالسلطة السياسية، مشيرين إلى أن الدَّارس يستطيع الإفادة من هذا الكتاب، وأمثاله، في تبيُّن رؤية الشاعر إلى العديد من القضايا. الأمر الذي يؤكِّد أنَّ سخرية الشَّاعر لم تكن في أي يوم مجانية، على مستوى الرؤية إلى العالم وأشيائه.

اختيار الحريَّة

تروي كتب الطَّرائف القديمة أن الأديب العربي الكبير عمرو بن بحر، الجاحظ، هرب من بلاط الخليفة، رافضاً أن يكون موظَّفاً، وقدَّم بعض الحجج، وأهمُّها حرصه على حرِّيته، ورغبته في «عيش» يحدِّد نمطه مزاجه الخاص. ونقرأ، في كتاب «طرائف الشعراء» المعاصرين، ما يعيد هذا الموقف الذي يأخذ أهميته إن علمنا حاجة مُتَّخذه إلى عطاء صاحب السلطة، وتهافت كثير من المتشاعرين على نيل هذا العطاء.

يروي البعيني أنَّ «الشيخ عباس القرشي»، الأديب المشهور، وفد على علي بك الأسعد، فألزمه البقاء عنده ليتذاكر معه في الآداب وينشده الأشعار، وينسخ له من بعض الكتب... لكن الأديب ضاق بهذا الإلزام، ورفض أن يغرق

في «وابل» عطاء صاحب السلطة، وهو «وابل» يغدق الجود، لكنه يغرق ذات الشاعر في الوقت نفسه. شعر الأديب بذلك، وعبَّر عنه بلغة شعرية تتخذ اللباقة وسيلة خلاص من الإلزام الذي لا يطيقه مزاج الشاعر الرائي إلى حياة حرَّة. يقول القرشي في بيان موقفه:

زرت ابن سعد فانهلَّت أنامله
عليَّ من وجوده كالوابل الغدق
ثمَّ انصرفت، بلا إذن، ولا عجب
أني خشيت على نفسي من الغرق (ص. ١٧).

في مدح صاحب السُّلطان

بين الكذب والسكوت

تقضي الظروف من الشاعر أن يقول رأيه في صاحب السلطة. ونجد، في طرائف البعيني، موقفين: أولهما للشاعر فؤاد جرداق، والثاني للشاعر موسى الزين شرارة.

رثى الشاعر فؤاد جرداق أحد أولي الأمر، فعوتب:

إنِّي عرفتك شاعراً حرَّاً أبي
من يعرف الجرداق حقا يعتب
غيَّرت نهجك في المديح والرِّثا
ماذا تركت لشاعر «متسبِّب»!؟

وأجاب:

... فإذا مدحت أخا النهى كن صادقا
وإذا رثيت ذوي الوجاهة فاكذب.

في مثل هذا الموقف، يقول موسى الزين شرارة:

إذا كان النِّفاق عليك فرضا

فأبلغ ما تقول هو السكوت.

ولعله موقف صعب أن يكون الشاعر بين موقفين: إما الكذب أو السكوت، وقد عانى الشعراء، على امتداد التاريخ الأدبي، من هذا الواقع، فكانت ظاهرة التكسُّب التي أراد معاتب جرداق للشُّعراء أن يتخلَّصوا منها.

السلامة والدِّعة

يؤثر بعض الأدباء السلامة، فينصرفون إلى تحصيل الرِّزق، وهم يدركون طبيعة السياسة وأصحابها، فيقول طانيوس عبده موضحاً سياسته التي كانت تبدو متلوِّنة:

إن السياسة عندنا هي أن تكون المنفعة
بالكيد أو بالضغط أو بالشتم أو بالمقرعة
وسياستي معروفة وهي السلامة والدِّعة...

في مواجهة السلطان وجاسوسه

رأينا نمطاً من السلوك يتمثَّل بالرَّفض السلبي المتخذ أشكالاً عديدة، كالهرب والسكوت والكذب... وهذا قد يؤتي سلامة ودعة مرغوبتين، لكن الشاعر ما كان ليركن دائماً إلى هذا النَّمط، ولدينا طرفة تؤكِّد ذلك، وتوضح طبيعة الكذب الذي أشار إليه الشاعر فؤاد جرداق آنفاً.

نظم فؤاد جرداق قصيدته المعروفة «وطنٌ سراحين الذئاب تسوسه»، فنقلها أحدهم إلى المستشار الفرنسي في مرجعيون. فأحالها هذا إلى ضابط الدرك للتحقيق وإجراء المقتضى بحقِّ الشاعر...

سأل الضابط: هل أنت ناظم هذه الأبيات؟

طلب الشاعر الاطِّلاع على الأبيات، واستطاع بعد تأمُّل الورقة والخط معرفة الواشي. فراح يقرأ بصوت جهوري:

وطنٌ سراحين الذِّئاب تسوسه

ماذا يفيد لشعبه تقديسه؟

صمت الألى، أهل الحصافة والنُّهى

وتفرَّدت بالرأي فيه تيوسه

وطن بلا طول ولا عرض ولا

شكل ولا حجم، فكيف أقيسه!؟

فقاطعه الضابط مداعباً: قل لي كيف ستقيس مساحة لبنان؟

فأجاب الشاعر ضاحكاً:... إنني أعني بلاد عربستان!

ضحك الضابط، وقال:... وإذا أردت أن تختم هذه القصيدة ببيت عن لبنان، فماذا كنت تقول فيه؟ فأجاب جرداق:

يا حبذا وطني على علَّاته

مهما تمادى بالأذى جاسوسه!

نقدٌ لاذع

يبدو «كذب» الشعر سخرية لاذعة، وتورية ناقدة. وهذا النَّقد الساخر نلحظه في بيتي أميل لحود، وقد قالهما، وهو المحامي العارف بواقع العدالة، عندما رأى عبارة «العدل أساس الملك» مكتوبة بالحشيش (الغازون) أمام قصر العدل:

رأيت العدل ينبته الحشيش

يهش لحسن طلعته الكديش

عجبت لعدلنا في الأرض ينمو

ويذبل في الدِّماغ، ولا يعيش.

وإذ يرى لخُّود ذبول العدل في الدِّماغ، يرى عبد الحسين عبد الله غرور الحكَّام، فيقول بعد ما مرَّ أحد النواب به وبالشَّاعر موسى الزين شرارة، من دون أن يأبه لهما:

أيا سيارة «الكادلاك» سيري.

وفوقك ألف طنٍّ من غرور
لقد مرَّ «الزعيم» ولم يسلِّم
على موسى، ولا العبد الفقير.

الإسهام في التَّغيير

يتجاوز الشاعر، أحياناً، موقف النقد السَّاخر، اللَّاذع إلى الاسهام العملي في التَّغيير، فنقرأ طرفة نادرة في دلالتها. إذ إنها تجمع بين شاعرين كبيرين اتخذ كل منهما موقفا مقاوما. يروي البعيني:

شكا الشاعر محمد علي حوماني، صاحب ديوان «فلان»، السَّاخر من الواقع السياسي الاجتماعي، من ألم في ضرس منخور أراد خلعه. فقصد عيادة الدكتور أديب مظهر، وهو الشاعر المتفرِّد في عصره باتجاهه الرمزي، المجدِّد، فقيل له: إنَّ الطبيب توجه إلى ساحة الشهداء للاشتراك في مظاهرة تطالب بحلِّ المجلس النيابي. فما كان من الحوماني إلَّا أن تناول قصاصة من الورق، وكتب عليها بيتين من الشعر:

قد جئت أخلع واحداً من أضراسي
فإذا الطبيب مضى لخلع المجلس
يا حبذا ألمي... ليبرأ موطني
من كل منخور الضمير مسوِّس.

من يُحيَّا؟

الشاعر والسلطة والتغيير موضوع يطول...، وإذا كان بعض الشعراء يقولون بلسان أحدهم، محيِّياً أحد الزعماء: «قف في رحاب البرلمان وحيِّه...»، فإنَّ بعضهم الآخر يردُّ بلسان رئيف خوري:

... من لم يحي الناس حيَّا.
ـ وهو ميْتٌ ـ لا يحيَّا.

إن الخلود يكتبه الشعر لمن يحيي الإنسان، ويحييه حياة حرة كريمة، أليست هذه كلمات الشاعر المبدع؟.